

مقدمة

١

عاطفة الحب عاطفة إنسانية أصيلة، يغرى الحديث عنها كل فرد، ويجذب كل إنسان. وهو حديث قديم منذ بدء الخليقة، وسيظل إلى أن تنتهى الخليقة.

وقد أولع العرب بنوع من الحب العفيف، المبني على التصون والتحرز، وتنزيه المرأة عن المباديل والدنايا. فقد كانوا يقدرون الحب العذرى ويحترمون، فأخو الفزارية كان يرغب في مصاهرة قيس بن ذريح ولما لامته العرب في ذلك قال لهم: «دعوا، ففى مثل هذا الفنى يرغب الكرام». وهناك عاشق أصاب السبع معشوقته فلحق بها، فعظم القوم تضحيته وقالوا: «والله لنتحرن عليه تعظيماً له، فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة، وتسامع الناس، فاجتمعوا إلينا فتحمرت

ثلثائة ناقة»، وكانوا يتجاوبون مع هذه العاطفة، ويعطفون على أصحابها، لمعاوية يقول: «لو أدركت عفرأ وعروة لجمعت بينهما»، وحتى بعض الأزواج كانوا يقدرّون هذه العاطفة فجميل يذكر في نهاية القصة التي رواها عن معشوقة افترسها الأسد ولما علم عاشقها بذلك انتحر ولحق بها - يذكر جميل أن الزوج تأسف وحزن حزناً شديداً لأنه لم يجمع بينهما في حياتهما. وكان من العشاق من يعتقد أن هناك رباطاً يربط بينهما، كذلك الرباط الذي يربط بين الزوجين، وكان إذا غضب مع معشوقته يرد عليها هذا الرباط، كما يطلق الرجل امرأته، فالرماح بن مالك القيسي غضب مع معشوقته فقال لها: «الوصل عليك مردوده» فقالت له: «ما قضى الله فهو خير». وتنتهى بعض القصص بنوع من الخيال يومئذ إلى انتصار الحب على الجاه والثروة، وعلى العادات والتقاليد، فعروة وعفرأ حين حال المال بينهما في الحياة فرفض الأب أن يزوجه منها لفقره، يتعانقان بعد الموت على هيئة شجرتين ملتئمتين، كانت المارة تنظر إليهما، ولا يعرفان أى ضرب من النبات. وعتبة وريا، حين حالت العادات بينهما وبين إكمال عرسهما، نبتت على قبرهما شجرة عليها ألوان من الورق يقال لها شجرة العروسين.

وقد اهتم الباحثون بدراسة الناحية العاطفية عند العرب، فمنهم من درس الغزل، كالذكور أحمد الخواف، ومنهم من درس الحياة العاطفة كالذكور محمد غنيمى هلال، ومنهم من درس الحب

العنرى كالأستاذ موسى خليل سليمان والأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى ومنهم من درس حب ابن أبي ربيعة وشعره كالذكور زكى مبارك... إلخ.

وهناك جانب أريد أن أهتم به وهو «تخصص الحب العربية» وهو جانب لا يقل أهمية عن الجوانب السابقة التي أهتم بها الباحثون، وهو في الوقت نفسه يقوم دليلاً عملياً أمام الاتهامات التي أتهم بها العرب، وأنهم جنس أدنى من الجنس الآرى، لا يعرفون القصة ولا الخيال المبتكر.

٢

وأعني بتلك القصص هذه الأخبار التي كانت تدور حول فريق من العشاق منهم من هو معروف مشهور كالمجنون، ومنهم من هو مجهول مغمور كأن يكون أعرابياً. وهذه الأخبار أو الأحاديث أو القصص كانت معروفة منذ العصر الجاهلي، وكان لها روايتها وقصاصها، ولها متمعوها وطلابوها.

وهذه النظرة إلى هذه الأخبار، وأنها شيء لا يتحرى السلق التاريخية وأنها حكايات شاعت بين الناس، قد تزيدوا فيها كما قال قيس بن ذريح، وهو يعتذر لقيس بن الملوح أمام ليلي. فإن قيساً المجنون قال: إنه رأى ليلي فقط ليلة الغيل. ولكن الناس قد تزيدوا

في ذلك - هذه النظرة تفسر الاضطرابات في الروايات التي قد تسند خبراً إلى قيس، ثم نراه مسنداً إلى جميل. أو شعراً إلى عروة، ثم نراه منسوباً إلى ابن ذريح.. إلخ. وهذه النظرة تنتشل فريقاً من الباحثين من حيرتهم أمام هذا التزايد والاضطرابات كما احتار الأستاذ أحمد عبد التار الجورارى أمام هذه الأخبار في كتابه «الحب العذرى».

٣

على أن هناك فريقاً من الباحثين، نظر إلى هذه الأخبار تلك النظرة وذلك في أبحاث جزئية لم يستقل بها كتاب، أو تنفرد بها رسالة.

فالدكتور أحمد محمد الحوفى في كتابه «الغزل في العصر الجاهلى» حين تعرض لحياة العنترين وما روى عنهم قال: «ولست على يقين من صحة هذه التفاصيل، التي تروى عن حياة هؤلاء المحبين، لأن الخيال القصصى قد أضاف إليها أحداثاً ومثيرات، لذا نجد اختلافاً في الروايات وتناقضاً أحياناً، ونجد تشابهاً بين نهاية محب ونهاية محب آخر» (ص ٢٠٥ من الطبعة الثانية).

والاستاذ بروكلمان تحدث عن قصص الحب التي شاعت في العصر الاموى. فذكر أن أخبار حب جميل وثينة، قد استولت على

خيال الشعب العربي حتى صنع منها قصة غرام. وأخذت مواد هذه القصة تتكاثر وتترايد باطراد حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية. ثم رأى أن أول من ينطبق عليه ذلك هو قيس بن الملوح، وقد ساق صاحب الأغاني أخباره في إطار من البواعث الضعيفة في إحكامها الفنى، ثم رأى أن ما ساقه الرواة من أخبار ابن ذريح أعلى درجة من أخبار المجنون، ولكن الأستاذ سنجر (Singer) يرى أن قصة ابن ذريح تعكس أهم عناصر القسم الثانى من قصة تريستان المشهورة. ثم تحدث عن عروة بن حزام وأنه بطل قصة غرامية. ثم ختم الحديث بوضع اليمن، فذكر أنه بطل من أبطال القصص الغرامية، وأن البواعث التي ذكرتها القصة في نهاية حياته موجودة إلى الآن عند أهل مهرة في قصة ذكرها «يان» (انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٩٩/١ - ٢٠٢).

والدكتور عبد العزيز عبد المجيد حين استعرض أدب القصة عند العرب، منذ عصر ما قبل الإسلام حتى منتصف القرن التاسع عشر، تحدث فيما تحدث عن «قصص الحب» (The Love Story) فرأى أنها ترجع إلى عهد الأمويين، وأن مؤلفيها مجهولون، وأنها تخاطب غرائز الجنس والشر، وعواطف الحب والشهامة، لذلك التصفت بذاكرة الشعب، وكما يقول (F. C. Bartlet): «نجحت في إحداث التأثيرات

الدرامية على عقول الشعب، وفي خلق الدهشة والاستغراب» (انظر :
"The Modern Arabic Short Story")

والاستاذ موسى خليل سليمان عقد في كتابه «الأدب القصصي
عند العرب» فصلا للقصص الإخباري، وعنى بها الحكايات القصيرة
والأسمار الكثيرة، والنوادر الطريفة، والأخبار المشتتة هنا وهناك، لا
يجمعها كتاب واحد من كتب الأصول لأنها لم تدون في مكان واحد
معين ولم يكتبها كاتب واحد معروف، لغرض من الأغراض الأدبية..
إلخ. ثم رأى أن أهم ما يلفت النظر من هذه الحكايات لليونان :
الحكايات الحبية والحكايات الغنائية. ولكنه في هذا الكتاب اكتفى
بدراسة الحكايات الغنائية ولم يدرسها دراسة أدبية، بل عرض للفناء،
وترجم لأشهر المغنين والغنيات، ثم ذكر أن لها فوائد تاريخية
 واجتماعية وأدبية. ولكنه لم يطنب في ذكر هذه الفوائد، ولا ينتظر منه
أن يطنب في جزء من كتاب تحدث عن الأدب القصصي بوجه عام
الدخيل منه والموضوع. على أنه في كتابه «يحكى عن العرب» أورد
نماذج للقصص العربي، وذكر - فيما ذكر - نماذج للحكايات الحبية،
 فعرض لقصة مجنون ليلى، وقيس وليلى، وعروة وعفراء.. إلخ. وكان
يعقب على كل حكاية بالدرس والتحليل والأسئلة، وكان في تحليله
لا يتعمق تعمقاً كبيراً مما يرشح هذا الكتاب لطلاب المدارس
الثانوية، وقد ذكر المؤلف في مقدمة الطبعة الأولى أنه من الحرام أن
يمر الطالب مروراً عابراً بهذا التراث القصصي الضخم، ولهذا عرض

تلك النماذج خلعة للطلاب العرب.

والأستاذ محمد مفيد الشوباشي خصص جزءاً في كتابه «القصة العربية القديمة» لدراسة قصص الحب العذري. وعرض - فيما عرض - قصة جميل وبثينة وقصة قيس وليلى. ورأى أن العرب في ذلك أو بعضهم على الأقل، قد ضارعوا الميزين من مؤلفي القصص المعاصرة في ابتداع الأحداث والمشكلات، وإسائة اللشام عن كتبها ومضمونها.

وخير من تعرضوا لهذا الموضوع هو الدكتور طه حسين في الجزء الأول من كتابه «حديث الأربعاء». فقد رأى أنه اكتشف فناً أدبياً ظهر بعد الإسلام وهو فن القصص الغرامية. ثم بحث أسباب نشأة هذا الفن، وتعرض لطائفة من هذه القصص، وأظهر ما في بعضها من تكلف وسخف، وما في البعض الآخر من جودة وإتقان.

٤

هذه هي أهم البحوث التي دارت حول هذا الموضوع. وهذا الكتاب سار في الدرب نفسه الذي بدأه هؤلاء السادة الأفاضل، فدرس قصص الحب العربية على أنها نوع من الأدب الذي انتشر بين عامة الشعب، ينبغي أن يدرس، وأن يكشف عما فيه من بذور

فنية. وعن الأغراض التي من أجلها أنشئت بعض هذه القصص وعن الأسباب التي قعدت بها عن النمو الكامل والتطور الملموس، وكل ما أرجوه أن أقطع قدرًا من الشوط، وأن ألق شعاعًا من الضوء.